البلاغة النبوية
في
كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل

د. عبد الحافظ ابراهيم البقرى

مقدمـــة

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد ...

فهذا بحث فى البـــلاغة النبوية موضوعه كتاب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى هرقل ، وكتاب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى الملوك للدعوة الى الاسلام ، لم يكن فيها تنميق ولا تزويق ، وهى بهذه السمة وثائق أدبية رفيعة ، اذ حققت بخلوها من التنميق والتزويق ــ أخص معنى للبلاغة الذى هو « مطـابقة الـكلام لمقتضى الحـال مع فصاحته ، والبحث عن المطابقة لمقتضى الحـال فى هذه الكتب يقتضينا التقصى لكل الظـروف التى كانت تحيط بكل واحـد ممن أرسلت اليهم هذه الكتب ، ذلك أننا نرى تلك الكتب قـد اختلف بعضها عن بعض فى اسلوبه طبقا لظروف كل واحـد ممن خوطبوا بها فى قـومه ، وهذا ما عنيت به فى بحثى ذاك ، فقـد حاولت كشف ما أمكن الكشف عنـه من الظروف التى كانت تحيط بهرقل حين كتب اليه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ معتمدا على هذه الظروف فى تحليلى للكتاب ، وكان لا بد من أن يسبق هذا بالقاء الضوء على مكـانة البلاغة النبوية بين أسـاليب القصحى ، وبيان أثر الاسلام فى نشأة الكتابة الأدبية لنكون على بينة من أن هذا الفن من الأدب ارتبط فى نشأته بالاسلام ، وكانت بواكيره الأولى تلك الكتب التى بعث بها النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى الملوك ، مع التأييد لكل ما آثرناه بالدليل .

وفى دراستى لكتاب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى هرقل لم أغفل الشرح والتفسير وما يعين عليهما من دراسة نحوية ، مع استنباط للأحكام الشرعية التى انطوى عليها الكتاب ، اذ المعنى وما يتضمنه من أحكام شرعية ثمرة التعبير بما له من خصائص تركيبية ، وصياغة وفق قوانين النحو •

وختمت بحثى بنتيجة هذه الدراسة التى انتهيت فيها الى أن يكون درسنا البلاغى لكتاب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ معتمدا على فهم كل الظروف والأحوال المختلفة التى كانت تحيط بكل واحد من المخاطبين بها ، وتأكيدا لما انتهيت اليه عرضت ــ فى سرعة وايجاز ــ كتابين آخرين للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : أولهما كتابه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى كسرى ، والآخر كتاب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى وائل بن حجر الكندى وقومه ، وهو ليس كتاب دعوة،ولكنه كتاب تكليف يبين بعض أركان الاسلام ، وبعض حدوده المقدرة على بعض الجرائم • وقد كنت أقصد الى ذلك الاختلاف فى الموضوع ، اذ من خلاله يتأكد معنى المطابقة الذى أسلفنا ، وسوف نرى ــ حين نطالع البحث قدر ما بين تلك الكتب الثلاثة من اختلاف ، لما بين المخاطبين بها من اختلاف أيضا،ولاسيما كتاب وائل بن حجر الذى حفل بالغريب،فكان أقوى دليل على عناية البلاغة النبوية أشد عناية بمطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وانها البلاغة التى انكشفت لها أستار النفوس فصاغت لها من التعبير ما يتواءم مع ما خلف هذه الأستار من مشاعر وأسرار بالقدر الذى يتحقق معه الفهم الدقيق ، والمعنى الواضح الذى لا لبس فيه ولا اختلاف معه وأرجو الله ــ تعالى ــ أن يجعل هذا البحث بداية لعمل أكبر وأشمل يتناول كل الكتب والمواثيق السياسية فى عهد النبوة •

واليه ــ سبحانه ــ أتوجه بخالص الدعاء أن يجعل هذا العمل فى ميزان والدى وأن يرحمهما ــ كما ربيانى صغيرا ، وأن يغفر لى زلة الغفلة « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل

علينا اصرا كماحملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» •

البـــاحث

مكان البلاغة النبوية بين أساليب الفصحى :

من الأمور التى ينبغى التسليم بها أن العربية فاقت جميع اللغات وتميزت بأنها « اللغة الشاعرة •• وليس فى اللغات التى نعرفها أو نعرف شيئا كافيا عن أدبها لغة واحدة توصف بأنها لغة شاعرة غير لغة الضاد، أو لغـــة الاعراب ••• ونريد باللغة الشـــاعرة انها بنيت على نســـق الشعر فى أصوله الفنية والموسيقية ، فهى فى جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات ، لا تنفصل عن الشعر فى كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء •

وهذه الخاصة فى اللغة العربية ظاهرة من تركيب حروفها على حدة، الى تركيب مفرداتهـــا على حدة ، الى تركيب قواعدها وعباراتها ، الى تركيب أعاريضها وتفعيلاتها فى بنية القصيدة »(١) •

وهى اللغة التى تتسع للتعبير عن كل خلجـــات النفس ، ودقائق الحس، وشهد لها الحق ــ تبارك وتعالى ــ بالابانة ، وشرفها باختيارها لغة للمعجزة الخالدة : القرآن الكريم « وانه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الأمين • على قلبك لتـــكون من المنـــذرين • بلســـان عربى مبين »(٢) •

هكذا وصف الله ــ تعالى ــ القرآن : « وكرر ذلك فى مواضـــع كثيرة ، وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميا • فلو كان يمكن فى لسان العجم ايراد مثل فصـــاحته ، لم يكن ليرفعـــه عن هذه المنـــزلة ••• ويبين ذلك أن كثيرا من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة ، وهم من أهل

---

(١) اللغة الشاعرة للعقاد ــ رحمه الله ــ ص ٧ ، ٨ • نشر مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٦٠) •

(٢) الآيات ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ من سورة الشعراء •

البراعةفيها ، وفى العربية ، فقد وقفوا على انه ليس فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع فى العربية »(٣) .

هذا شأن العربية بعامة ، أما شأنها حين بعث محمد ــ صلى الله عليه وسلم ، ونزل عليه القرآن فقد بلغت الغاية التى لا تدرك،والشأو الذى لا يلحق ، ويؤكد ذلك « انه لا يجــوز أن يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى نزل فيه الوحى ، وكان فيه التحــدى ، انهــم زادوا على أولئك الأولين ، أو كملوا فى علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له ، كيف ؟ ونحن نراهم يحملون عنهم أنفسهم ، ويبرءون من دعوى المداناة معهم ، فضــلا عن الزيادة عليهم هذا خالد بن صــفوان يقول : « كيف نجاريهم وانما نحكيهم ؟ أم نسابقهم ، وانما نجرى على ما سبق الينا من أعراقهم(٤).

ونرى الجاحظ يدعى للعرب الفضــل على الأمم كلها فى الخطــابة والبلاغة ، ويناظر فى ذلك الشــعوبية ، ويجهلهم ويســفه أحلامهم فى انكارهم ذلك ، ويقضى عليهم بالشقوة ، وبالتهالك فى العصبية ، ويطيل ويطنب ، ثم يقول(*) :

« ونحن أبقاك الله اذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلهــا فى أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والمسجوع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا على أن ذلك لهم شــاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليــوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثــل ذلك الا فى اليسير والشىء القليل » انتهى كلامه .

---

(٣) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٣١ ، ٣٢ ط دار المعارف (الرابعة).

(٤) كتاب دلائل الاعجاز ــ تعليق الشيخ محمود شاكر) .

(*) البيان والتبيين ص ٢٩ ج ٣ تحقيق هارون .

والأمـر فى ذلك أظهـر من أن يخفى ، أو أن ينكره الا جـاهل أو معاند »(٥) تلك منزلة العربيـة آنذاك ، وذلك شأن النـاطقين بها حين نزل القرآن الكريم ، « لا جرم كانوا أهل هذه اللغة المعجزة التى ناسبتهم بأوضاعها فى معانى التركيب ، حتى كأنمـا كتب لها أن تكون دين الألسنة الفطرى لتصلح بعد ذلك أن تكون لسان دين الفطرة»(٦) .

فى هؤلاء ، ومن بينهم بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحمل لواء الدعوة الى الله ، واقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يبذهم جميعا فى الفصاحة ، وأن يفوقهم فى امتـلاك ناصية البـلاغة ، ليحق الله به الحق ، ويبطل به الباطل فكان أفصحهم لسانا ، وأعذبهم منطقا وبيانا، حدث بذلك فقال لأصحابه « أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر »(٧) ، ويروى هذا الحديث أيضا بلفظ « أنا أفصح العرب ، بيـد أنى من قريش ، ونشأت فى بنى سعد »(٨) فوصف ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه بالأفصحية على جميع العرب الفصحاء ، فهو ـ اذن ـ أفصح الفصحاء ، وذكر روافد هذه الأفصحية متمثلة فى قرشيته ، واسترضاعه فى بنى سـعد ، « فجمع له بذلك ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها »(٩) ، حيث ان بنى سعد احدى أفصح القبائل الذين هم مادة اللغة ، وهم « ـ فيما نص عليـه الرواة : قيس وتميم وأسد ،

---

(٥) الرسالة الشافية فى وجوه الاعجاز لعبد القاهر ص ٥٧٦ (ضمن كتاب دلائل الاعجاز ـ تحقيق الشيخ محمود شاكر) .

(٦) تاريخ آداب العرب للرافعى ص ٣٥ ، ٣٦ جـ ١ ط / ١٩١٢ .

(٧) سيرة ابن هشام (عن ابن اسحاق) ص ١٦٧ جـ ١

(٨) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ص ٦١ : وهذه رواية أصحاب الغرائب (ينظر شرح الشفا ملا على القارى ص ١٩٥جـ١)

(٩) السابق نفسه .

والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف . قال أبو عبيدة : وأحسب أفصح هؤلاء بنى سعد بن بكر .

... وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسترضعا فيهم ، وهم أيضا الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم »(١٠) .

كما أن قريشا كانت لغتها مختارة منتقاة ، بحكم استقبالها لوفود الحجيج الى الكعبة ، ورحلاتها الى اليمن ، والى الشام ، وضربها فى الأرض الى فارس والى الحبشة ، « فسمعوا مناطق الناس ، وتدبروا وجوه المذوبة فى أعذبها ، وتناولوا كثيرا من ألفاظ تلك الأمم فداخلت كلامهم وأعربوها .. وعلى ذلك صاروا بطبيعة أرضهم فى وسط العرب كأنهم مجمع لغوى يحوط اللغة ، ويقوم عليها ، ويشد أزرها ، ويرفع من شأنها ، ويزيد فى ثروتها ، وبالجملة يحقق فيها كل معانى الحياة اللغوية »(١١) .

وفى ذلك « روى عن أبى بكر الصديق انه قال : قريش هم أوسط العرب فى العرب دارا ، وأحسنه جوارا ، وأعربه ألسنة » . وقال قتادة : « كانت قريش تجتبى ـ أى تختار ـ أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاته لغتها ، فنزل القرآن بها »(١٢) .

وقد كان العرب الفصحاء الذين بعث فيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرون ويسلمون له بهذه الأفصحية بدليل أن قوله : « أنا أفصح

---

(١٠) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .
(١١) السابق نفسه ص ٨٣ .
(١٢) لسان العرب لابن منظور ص ٢٨٦٥ ط دار المعارف .

العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر » قد أرسله فى العرب جميعا ، والفصاحة أكبر أمرهم ، والكلام سيد عملهم ، فما دخلتهم له حمية ، ولا تعاظمهم ولا ردوه ولا غضوا منه ، ولا وجدوا الى نقضه سبيلا ، ولا أصابوا للتهمة عليه طريقا ، ولو كان فيهم أفصح منه لعارضوه به ، ولأقاموه فى وزنه ، ثم لجعلوا من ذلك سببا لنقض دعوته ، والانكار عليه ، غير انهم عرفوا منه الفصاحة على أتم وجوهها، وأشرف مذاهبها ، ورأوا له فى أسبابها ما ليس لهم ، ولا يتعلقون به ولا يطيقونه »(١٣) .

وقد شهد له أصحابه بانفراده بالأفصحية التى عجبوا لها وقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذى هو منك أفصح ، وأجابهم — صلى الله عليه وسلم قائلا : « وما يمنعنى من ذاك ؟ فانما أنزل القرآن بلسانى لسان عربى مبين »(١٤) .

ذلك هو مكان البلاغة النبوية بين أساليب الفصحى ، يعجب له أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — وهم الفصحاء الأبينـاء ، ويقره عليه من لم يؤمن به من قومه ذوى اللسن ، فلا غرو أن يطنب فى وصف تلك البلاغة الواصفون من أمثال الجاحظ(١٥) ، والقاضى عياض(١٦) ، والرافعى(١٧) .

---

(١٣) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص ٣٠٠ .

(١٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ليقاضى عياض ص ٦١ ، وكذا أمالى القالى ص ٢٩ جـ ١ وهذا الحديث رواه البيهقى فى شعب الايمان (ينظر شرح الشفا لملا على القارى ص ١٩٥ جـ ١) .

(١٥) فى البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٥ .

(١٦) فى الشفا للقاضى عياض ص ٥٧ .

(١٧) فى اعجاز القرآن ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

وأجدنى أميل الى وصف القـاضى عياض لهذه البلاغة ، لايجازه ودقته ، قال : « وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يجهل : سلاسة طبع ، وبراعة منزع ، وايجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالـة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف(١٨) ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة بلساتها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه ، وتفسير قوله »(١٩) .

وقد شهد القرآن الكريم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدم التكلف « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين »(٢٠) .

ولا يغيب عنا فضلا عن ذلك كله ، ما حباه الله تعالى من «التأييد الالهى الذى مدده الوحى الذى لا يحيط بعلمه بشرى »(٢١) .

ومع هذا الجمال والكمال فى فصاحة الكلام جمـال فى الأداء ، وهو(٢٢) ما يعرف بفصاحة لمنطق ، ... فقد كان جمال فصاحته فى نطقه ، كجمال فصاحته(٢٣) فى كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة ـ

---

(١٨) لعله أراد بالقلة العدم ومنه قول أبى أوفى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقل اللغو أى لا يلغو رأسا ، ومنه أيضا قوله تعالى . (فقليلا ما يؤمنون) أى لا يؤمنون أصلا (شرح الشفا ص ١٧٦ جـ ١)

(١٩) الشفا ص ٥٥ .

(٢٠) الأية ٨٦ من سورة ص .

(٢١) الشفا للقاضى عياض ص ٦٢ ، وكذا شرحه لملا على القارى جـ ١ ص ١٩٦ .

(٢٢) أى الجمال فى الأداء .

(٢٣) ينظر : عبقرية محمد للعقاد ص ٢٠ .

رضى الله عنها ـ حيث قالت « ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم كان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه »(٢٤) وقالت أيضا ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن يسرد كسردكم »(٢٥) .

وفى وصف أم معبد(٢٦) له ـ صلى الله عليه وسلم ـ تأكيد لكل الجوانب التى تميز بلاغة النبوة ، قالت فى وصفها له :

« حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظمن »(٢٧) .

الكتابة الفنية ترتبط فى نشأتها بالاسلام :

عرف العرب فى جاهليتهم الكتابة ، فقد خاطبهم القرآن الكريم بما يؤكد معرفتهم لها ، وعلمهم بأدواتها وآلاتها « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم»(٢٨)،وقوله تعالى : «ن والقلم وما يسطرون»(٢٩) وقال أيضا ـ

(٢٤،٢٥) فتح البارى جـ ٦ ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(٢٦) أم معبد : اسمها عاتكة بنت خالد ، امرأة من بنى كعب ، من خزاعة ، وقد مر بخيمتها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فى طريق هجرته ومسح بيده الشريفة شاتها العجفاء فأدرت لبنا كثيرا (ينظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ . وتعليق المحققين على هذه القصة أسفل الصفحة (طبعة الحلبى) .

(٢٧) الشفا ص ٦٢ ، وشرحه للقارىء جـ ١ ص ١٩٦ ، وفى شرح القارى لهذا الوصف قال معنى فصل أنه مفصول مبين ومفهوم أو فاصل بين الحق والباطل ، أو حق لا باطل . لا نزر أى لا يسير فيشير الى خمل ، ولا هذر أى ولا كثير فيميل الى ملل .

(٢٨) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ من سورة العلق .

(٢٩) الآية ١ من سورة القلم .

سبحانه ــ « والطور وكتاب مسطور فى رق منشور »(٣٠) وقال أيضا « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك »(٣١) ٠

وقد كان مما آذت به قريش رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمسلمين أن كتبت صحيفة بمقاطعتهم ثم علقوها فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم(٣٢) ٠

واذا كانت الأمية هى الأمر الشائع فيهم ، فقد كان لديهم بعض الكتاب ، روى البلاذى فى كتابه « فتوح البلدان » ان الاسلام دخل وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وأبان بن سعيد بن العاص ابن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ، وعبد الله بن سعيد بن أبى سرح العامرى وحويطب بن عبد العزى العامرى ، وأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبى سفيان وجهيم بن الصلت ، ومن حلفاء قريش العلاء ابن الحضرمى »(٣٤) ٠

ولندرة الكتابة كانوا يلقبون من جمع بين معرفة الكتابة والرمى والعوم «الكامل» فلقبوا بهذا اللقب سعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير، وعبد الله بن أبى(٣٤) ٠

فلما جاء الاسلام استكتب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعض هؤلاء الذين يعرفون الكتابة لكتابة ما ينزل من القرآن ، فكان

---

(٣٠) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة الطور ٠
(٣١) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت ٠
(٣٢) ينظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٠ ٠
(٣٣) فتوح البلدان ص ٤٧١ وما بعدها ٠
(٣٤) السابق نفسه ص ٤٧٤ ٠

أول من كتب له مقدمة المدينة أبى بن كعب الأنصارى ، فكان أبى اذا لم يحضر دعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ زيد بن ثابت الأنصارى ، فكتب له ، فكان أبى وزيد يكتبان الوحى بين يديه وكتبه الى من يكاتب من الناس ، وما يقطع وغير ذلك ، وأول من كتب له من قريش عبد الله بن أبى سرح ثم ارتد(٣٥) .

هذا هو شأن العرب مع الكتابة ، اما الكتابة الفنية ، أو النثر الفنى فذلك أثر من آثار الاسلام ارتبط به فى نشأته ــ على ما يرجح(٣٦) ــ اعتمادا على النصوص الوثيقة التى تجعلنا نقف فى مرحلة وسطى بين من يغالى ويعد النثر الفنى معروفا منذ العصر الجاهلى ، ومن يؤخر نشأة الكتابة الفنية الى العصر العباسى عصر التأثر الواضح بالفرس ، ولذا فان رسائله وكتبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى الملوك تعد بداية لصناعة الكتابة(٣٧) ، وقد صارت بما لها من منهج عرفت به من استفتاح بالبسملة وحمدا لله .. وختمها بالسلام أنموذجا أدبيا ودينيا معا لصحابته ، وقد ظهر احتداؤها فى القرن الأول حتى جاء عبد الحميد الكاتب .. فابتدع نمطا جديدا من الرسائل الديوانية يميل الى الاسلوب المطل والترادف المطنب متخذا وسائل التعظيم والاكبار للخلفاء والرؤساء(٣٨) .

وصار للكتاب فيما بعد شأنهم ومكانهم بما تميزو به من عناية

---

(٣٥) نفسه ص ٤٧٣ .

(٣٦) ينظر : الفن ومذاهبه فى النثر العربى . د. شوقى ضيف ص ١٠٤ .

(٣٧) ينظر : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى (هامش ص ٣٣٧) .

(٣٨) البيان النبوى . د. محمد رجب البيومى ص ١٢٣ .

فى أســـاليبهم وقـــد أشـــاد بهم الجـــاحظ(٣٩) ، وامتدحهم أيضـــا ابن رشيق(٤٠) .

هذا هو فن الكتابة الذى عرف أصحابه بحسن الانتقاء لألفاظهم ، والتخير لمعانيهم ، ارتبط بالاسلام فى نشـــأته ، وكانت كتب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى الملوك المثل الذى احتذى بنهجه الجديد ــ كما سبق أن ذكرنا . وكان ــ صلى الله عليه وسلم ــ يختم تلك الكتب بخاتمه الشريف الذى كان نقشه : « محمد سطر ، ورسول سطر ، والله ســـطر »(٤١) .

ولعليا ــ بعد كل ما تقـــدم نكون على بينـــة من مكانة البـــلاغة النبوية ، انها غاية الابداع البشرى الذى يسرى فى كل غرض يتناوله رسول الله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ وليس الابداع تعبيرا للكلام ، وتزيينا له بحشد الصور البيانية ، وكثرة المحســـنات البديعية ، ولكن الابداع فى أن يكون التعبير على وفق مقتضى الحال . وهذا ما تؤكده كتبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو ما تعنى به هذه الدراسة ، ومن أبرز تلك الكتب كتابه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى هرقل ملك الروم وهو واحد من كتب الدعوة الى الدخول فى الاسلام .

---

(٣٩) ينظر البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦٦ .
(٤٠) ينظر : العمدة جـ ٢ ص ١٠٦ .
(٤١) سنن الدارقطنى جـ ٢ ص ١١٤ .

كتابه صلى الله عليــه وسلم ــ الى هرقل

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم • سلام على من اتبع الهدى • أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الأريسيين •

ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سـواء بيننا وبينكم ألا نعبـد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخـذ بعضنا بعضـا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » •

الظروف التى مهدت لكتابة النبى صلى الله عليه وسلم الى الملوك :

كان صلح الحديبية الذى انعقد بين النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبين قريش فى السنة السادسة للهجرة نصرا للدعوة الاسـلامية ، حيث شعر المسلمون بالأمن ، ونعموا بالهـدوء ، فقد كان بين شروط الصلح أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين مدة عشر سنوات(٤٣) • وقد فسر الفتح المذكور فى قوله تعالى « انا فتحنا لك فتحا مبينا »(٤٤) بأنه صلح الحديبية(٤٥) •

فى تلك الفترة الآمنة أخذ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يبعث برسائله الى الملوك ، وذوى السلطان يدعوهم الى الدخول فى الاسلام ، تحقيقا لعالمية الرسالة ، اذ هو رسول الله الى الناس كافـة « وما أرسلناك الا كافة للنـاس بشيرا ونـذيرا ولكن أكثر النـاس

---

(٤٢) فتح البارى جـ ١ ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ •
(٤٣) ينظر سيرة ابن هشام ص ٣١٧ جـ ٢ •
(٤٤) الآية ١ من سورة الفتح •
(٤٥) ينظر تفسير ابن كثير ص ١٨٢ جـ ٤ •

لا يعلمون » (٤٦) ، فكتب الى هرقل ملك الروم ، والى كسرى ملك الفرس ، والى المقوقس عظيم القبط بمصر آنذاك ، والى النجاشى ملك الحبشة ، كما وجه كتبا أخرى لأفراد العرب فى غسان واليمامة والبحرين(٤٧) .

ظروف خاصة حول كتاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم الى هرقل:

أحاط بكتاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى هرقل ظروف لم تكن لغيره من كتب ، فقد وصل الكتاب وقتى بلاد الروم وفد تجارى من قريش على رأسه أبو سفيان بن حرب ، وعلم بذلك هرقل ، فأراد أن يستوثق من صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وان يقف على أحواله من هذا الوفد القرشى ، فأمر باستدعائهم ومثلوا بين يديه ، وقدم اقربهم نسبا الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أبو سفيان ، واخذ يطرح عليه أسئلة ويتلقى منه الاجابات عليها ، ثم حلل تلك الاجابات تحليلا دقيقا ، انتهى به الى الحكم بأن محمدا رسول الله ، وانه سينتصر ويمتد سلطانه لتتضوى تحته بلاد الروم(٤٨) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن هذا الحوار الذى انتهى بهذا الحكم حدث بين طرفين كلاهما يومئذ عدو للاسلام ، فهرقل على نصرانيته المحرفة ، وأبو سفيان ـ آنذاك ـ واحد من زعماء الكفر فى قريش ، فحين نجد من هذين شهادة لمحمد فهى شهادة جديرة بالتقدير ، فان الفضل ما شهدت به الأعداء .

---

(٤٦) الآية ٣٨ من سورة سبأ .

(٤٧) ينظر : الكامل فى التاريخ لابن الأثير ص ١٤٦ جـ ٢ ، وكذا فتح البارى جـ ٨ ص ١٠٤ .

(٤٨) ذكر هذا الحوار الذى دار بين هرقل وأبو سفيان فى : صحيح البخارى وكذا صحيح مسلم وقد اكتفينا بالاشارة الى موضوعه اجمالا لعدم صلته بموضوع البلاغة النبوية

من الذى حمل كتاب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى هرقل ؟

حمل هذا الكتاب الصحابى الجليل دحية بن خليفة الكلبى ، من كبار الصحابة ، ومن أجملهم وجها ، وكان جبريل ــ عليه السلام يأتى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى صورته ، وقد أسلم دحية قديما، ولم يشهد بدرا،وشهد المشاهد بعدها ، وبقى الى خلافة معاوية ، وليس فى الصحابة من اسمه دحية سواه(٤٩) • ولعل فى اختياره لهذه المهمة نوعا من البلاغة فى الدعوة أيضا لما كان له من جمال ووجاهة •

من بلاغة النبوة فى هذا الكتاب :

مما يعيننا على ادراك بلاغة كلام ما أن نعرف ظروف وأحوال من وجه اليهم ، ففى ذلك ما يحدد لنا طبيعة المقام الذى صيغ الكلام وفق مقتضاه ، ونحن بصدد كتاب نبوى موجه الى هرقل ملك الروم يدعوه فيه الى الاسلام فى وقت كان نجم هرقل يلمع فيه مزهوا بنصره على الفرس ، ذلك النصر الذى أخبر به القرآن الكريم قبل وقوعه ببضع سنين

« غلبت الروم » • فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون • فى بضع سنين»(٥٠) •

وكان هذا النصر متوافقا فى زمنه مع صلح الحديبية ، كما قال عكرمة والزهرى وقتادة وغير واحد(٥١) •

ووجهوا تحديدهم ذاك بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله

---

(٤٩) ينظر : عمدة القارى ص ١٨٠ جـ ٨ وينظر أيضا : اسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير جـ ٢ ص ١٣٠ •

(٥٠) الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ من سورة الروم •

(٥١) ينظر : تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٢٦ •

بكسرى ليمشين من حمص الى ايلياء وهو بيت المقدس شكر الله تعالى ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى بعثه مع دحية ابن خليفة(٥٢) .

ولم يلبث هرقل « حين انتصر على الفرس ، وأعلى الصليب فى بيت المقدس ، وحين رأى الأنظار تشد اليه من أرجاء العالم المسيحى كله لينقذ المسيحية ممـا ألم بها أن فكر فى توحيـد المذاهب المسيحية وصوغها مذهبا واحدا،ثم دعاهم الى مجمع «خلقدونية» فأقروا مذهبا مسيحيا موحدا »(٥٣) وهـو المذهب الذى يعرف باسـم الملكانية(٥٤) نحن ــ اذن ــ أمام قيصر يرى فى نفسه منقذا للمسيحية ، ويتعصب لمذهبه الذى يتبعه فى تصـوره للمسـيح ، ويعمل ــ جاهدا ــ على فرض هذا المذهب على غيره من المسيحيين ، وينكل بمن لم يقبلوه ممن كانوا تحت سلطانه ، كما فعـل بطارقته بشعب مصر الذى كان يؤمن بمذهب اليعاقبة(٥٥) .

---

(٥٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٢٦ .

(٥٣) فتح العرب لمصر لألفريد بتلر ترجمة محمد فريد أبو حديد ص ١٥٥ .

(٥٤) مذهب فى ألوهية المسيح وعلاقتها بجسده وخلاصته « أن المسـيح له طبيعتـان لا طبيعة واحـدة ، وأن اللاهوت طبيعـة وحـدها والناسـوت طبيعة وحدها التقتا فى المسـيح » (ينظر فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ٨٦٥) .

(٥٥) هو مذهب آخـر فى ألوهية المسـيح وعلاقة هـذه الألوهية بالجسد وخلاصـته : « أن المسـيح طبيعة واحدة ، اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت » (ينظر : فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ٨٦٥ ، وقد ذكر صاحبه أنه فى هذا ينقل عن الشيخ أبو زهرة فى كتابه . محاضرات فى النصرانية

الى هذا القيصر يرجه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كتابه، يدعوه فيه الى الاسلام دين التوحيد الخالص ، ويبدأ الكتاب بالبسملة، والبسملة اذا كانت فى سنته ــ صلى الله عليه وسلم ــ مجلبة للبركة حين تفتتح بها الأمور المهمة ــ كما قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع » والمراد بحمد الله تعالى ذكره ، كما جاء فى رواية أخرى ، فانه روى على أوجه : بذكر الله ، ببسم الله ، بحمد الله »(٥٦) . اذا كان شأن البسملة كذلك بصفة عامة ، فانها هنا ــ فضلا عن ذلك ــ تجيء فى مفتتح هذا الكتاب ايذانا بالحق ، وتنبيها على ما يحيط بالقيصر وأتباعه من باطل ، وأن الذى يجدر أن تستفتح باسمه الأمور : الله الرحمن الرحيم،فهو تعريض(٥٧) بباطلهم الذى هم فيه يعمهون ، .اذ الاله فى عقيدتهم ثالث ثلاثة ، وباسمه يستفتحون ، وقد حقق هذا الاستفتاح الاسلامى غايته،ووصل سره الى نفس هرقل ، فربط بين هذا الدين الحنيف ، وبين ما سبقه من صحيح الأديان ، فقد وقع فى مرسل سعيد ابن المسيب أن هرقل لما قرأ الكتاب قال : هذا كتاب لم أسمعه بعد سليمان عليه السلام ، كأنه يريد الابتداء « ببسم الله الرحمن الرحيم »(٥٨) .

واذا كانت كتب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم قد استفتحت بالبسملة ــ مع اختلاف عقائد وأحوال من أرسلت اليهم ، فهذا لا يتنافى مع كون البسملة تختلف الغاية منها فى كتاب عنهافى الآخر ، اذ الشىء قد

---

(٥٦) ينظر : فتح البارى جـ ٨ ص ١٧٦ ، وصحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ١٠٨ .

(٥٧) من المعروف فى التعريض « أن دلالة اللفظ عليه خارج عن دلالة اللفظ أصالة أو تبعا » (شرح الفوائد الغياثية لطاشكبرى زاده ص ٢٦٣)

(٥٨) فتح البارى جـ ٨ ص ١٧٧ .

يكون واحدا وتقصد منه غايات متعددة ، وقد ذكرت البسملة فى افتتاح جميع سور القرآن الكريم عدا « براءة » ولها فى كل سورة معنى ، وقد عنى بتفسير البسملة على هذا النحو فى أول كل سورة « القشيرى » فى تفسيره المسمى : « لطائف الاشارات » .

واذا كانت الباء فى البسملة متعلقة بمحذوف ، وكل فاعل يضمر ما يجعل التسمية مبدأ له ، مع جواز تقديم المتعلق وتأخيره ، فانى أوثر تأخيره لما فيه من تقديم للمعمول ، ولاشك أن « تقديم المعمول هنا أوقع ، كما فى قوله تعالى « بسم الله مجراها »(٥٩) وقوله « اياك نعبد » لأنه أهم ، وأدل على الاختصاص وأدخل فى التعظيم ، وأوفق للوجود لأن اسمه تعالى مقدم على القراءة (٦٠) وقد اجتمع فى البسملة ثلاثة من أسماء الله الحسنى ، لفظ الجلالة « الله » وهو امام سائر الأسماء ، وخصت به كلمة الاخلاص ، ووقعت به الشهادة فصار شعار الايمان وهو اسم لم يتسم به أحد ، قد قبض الله عنه الألسن، فلم يدع به شيء سواه »(٦١) ، وجميع ما سوى هذا الاسم من الأسماء الحسنى شرح لمعنى ذلك الاسم الأعظم ، وقد أثر عن الشافعى ـ رضى الله عنه أنه قال : « جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة،وجميع السنة شرح للقرآن ، وجميع القرآن شرح أسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا . زاد غيره : وجميع الأسماء الحسنى شرح لاسمه الأعظم »(٦٢) .

ويجيء مع هذا الاسم الأعظم فى البسملة اسمان آخران فيهما معانى الرحمة فياضة ، أما أحدهما وهو الرحمن فمعناه : ذو الرحمة

---

(٥٩) الآية ٤١ من سورة هود .
(٦٠) تفسير البيضاوى ج ٢ .
(٦١) شأن الدعاء للخطابى ص ٣١ .
(٦٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ج ١ ص ٦ .

الشاملة التى وسعت الخلق فى أرزاقهم،وأسباب معايشهم ومصالحهم ، وعمت المؤمن والكافر ، والصالح والطالح .. وهو اسم خاص به — سبحانه — وفى معناه المستفاد من بناء صيغته على فعلان مبالغة وسعة، وأما الرحيم فخاص بالمؤمنين كقوله تعالى (وكان(٦٣) بالمؤمنين رحيما)(٦٤) .

ومجىء هذه الأسماء الثلاثة متتابعة فى البسملة فيه نسق متجانس ، فان اسم الرحمن اسم انفرد به البارى تعالى ، كما أن اسم الله انفرد به ، فذكر أولا اسم الله ، ثم ذكر عقيبة اسم الرحمن لما حصل بينهما من هذه المجانسة ، ... والرحمن كالأصل ، والرحيم كالزيادة فى التشريف ، والأصل يجب تقديمه على الزيادة كقوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »(٦٥) ، ونظم البسملة على هذا الترتيب أحسن »(٦٦) .

ومما لاشك فيه أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أعلم الأمة كلها بأسرار القرآن ، والبسملة منه(٦٧) — وهو على بينة مما

---

(٦٣) الآية ٤٣ من سورة الأحزاب .

(٦٤) شأن الدعاء للخطابى ص ٣٦ ، وص ٣٩ .

(٦٥) الآية ٢ من سورة يونس .

(٦٦) لوامع البينات : شرح أسماء الله الحسنى والصفات للرازى ص ١٦٧ .

(٦٧) اتفق العلماء على أن البسملة بعض آية من سورة النمل ، واختلفوا فى شأنها فى أوائل السور : أهى آية أم أنها كتبت للفصل ؟ وأميل الى أنها فى أوائل السور من القرآن أيضا فان الاجماع على أن ما بين دفتى المصحف كلام الله تعالى والوفاق على اثباتها فى المصاحف مع

تنطوى عليه ألفاظها الوجيزة من معان وأسرار ، لذا كان فى افتتاحه بها لكتابه الى هرقل والى غيره ما يشير الى أنه المبعوث بالرحمة العامة،وأنه قد أنزل عليه الهدى ماثلا فى القرآن ، وآتاه الله الحكمة فبينه للناس ، فضلا عن المعانى الأخر التى تستفاد منها فى خطاب هرقل بهذا الكتاب، وقد ذكرناها من قبل .

وبعد البسملة يبدأ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كتابه بنفسه ، اذ هو المرسل للكتاب ، فيقول : « من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم » فيحقق بهذا البدء تجاوبا مع الفطرة ، وتوفيرا الجهد يبذل فى التعرف على المرسل ، فما من رسالة مكتوبة الا والمخاطب بها يحرص ــ قبل قراءتها ــ على أن يقف على مرسلها وفى هذا السنن النبوى معاجلة بمطلوب ، وتحقيق لمرغوب ، الأمر الذى يؤكد أن البلاغة النبوية هى بلاغة الفطرة التى لا تكلف فيها ، وأنها تتسم « بسمة الابلاغ ، أو البلاغ المبين ، وأصدق ما يقال فى تعريفها ما قيل فى تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة : أقرب موصل بين نقطتين »(٦٨) .

ولا يغفل العاكفون على استنباط أحكام الشريعة من سنته ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما فى هذا ابداء من توجيه يحتذى ، فيقررون «أن من السنة فى المكاتبة والرسائل بين الناس أن يبدأ الكاتب بنفسه،فيقول : من زيد الى عمرو ... » قال الامام أبو جعفر فى كتابه « صناعة

=

المبالغة فى تجريد القرآن حتى لم تكتب آمين » (ينظر : تفسير القرطبى ص ٨١ ط / الشعب . وتفسير البيضاوى ص ٢ ، وكذا سبل السلام للصنعانى ج ١ ص ١٧٢) .

(٦٨) عبقرية محمد للعقاد ص ٨٢ .

الكتاب » : قال أكثر العلماء يستحب أن يبدأ بنفسه ... وأما العنوان فالصواب أن يكتب عليه الى فلان .. هذا هو الصواب الذى عليه أكثر العلماء من الصحابة والتابعين »(٦٩) .

ولما فى هذا البدء من بعد عن التكلف ، فانه لم يرق أخا هرقل الذى غضب ـ حين قرئت الرسالة ـ من تقديم ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنفسه على هرقل،« ذكر المدائنى أن القارىء لما قرأ : من محمد رسول الله الى عظيم الروم غضب أخو هرقل واجتذب الكتاب، فقال له هرقل : مالك ؟ فقال : بدأ بنفسه وسماك صاحب الروم،فقال هرقل : انك لضعيف الرأى ، أتريد أن أرمى بكتاب قبل ان أعلم ما فيه ، لئن كان رسول الله انه لأحق أن يبدأ بنفسه ، ولقد صدق أنا صاحب الروم ، والله مالكى ومالكهم »(٧٠) .

وفى تعريف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه لهرقل يذكر بعد اسمه الشريف وصفين هما العبودية لله وكونه رسولا من عند الله « عبد الله ورسوله » مع اضافة كل من هذين الوصفين الى الله ـ تعالى ـ وهى اضافة للتشريف ، أما كل من هذين الوصفين فله غاية ، ولذكره سر قصد اليه ، فالعبودية لله ـ حين تذكر فى خطاب ملك نعلم من شأنه انحراف العقيدة وضلالها حيث اتخذ من ـ المسيح الها ـ العبودية لله فى هذا المقام ذات دلالات متعددة ، انها اعلان واضح عن العقيدة الصحيحة التى تقوم على أن أحدا من البشر ـ مهما علت منزلته ـ فانه لا يتجاوز عبوديته لله تعالى ، وهى أيضا تأكيد لمعنى « لا اله الا الله » التى جاء بها جميع الرسل ، ثم ان فى الاتصاف بها شرفا ، اذ هى عبودية للخالق العظيم .

---

(٦٩) صحيح مسلم النووى جـ ١٢ ص ١٠٨ .

(٧٠) فتح البارى جـ ٨ ص ١٧٧ .

لا تدعنى الا بيا عبده فانه أشرف أسمائى

وقد وصف الله تعالى ــ رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بها فى أشرف مواقف تكريمه ــ عليه الصلاة والسلام ــ فى الاسراء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير »(٧١) .

ففى هذه الصفة من الاهتمام ما يستوجب ألا تنسى،ولا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية ، كما التبسا فى العقائد المسيحية ــ بعد عيسى عليه السلام ــ بسبب ما لا بس مولده ، ... وبسبب الآيات التى اعطيت له ، فاتخذها بعضهم سببا للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية ... وبذلك يبقى للعقيدة الاسلامية بساطتها ونصاعتها »(٧٢) .

ان رسول الله ــ صلى الله عليه ووسلم ــ يقرر فى مطلع رسالته عبوديته لله نفيا لكل شوائب الشرك ، وتأكيدا لتحرير البشر من عبادة بشر ــ كائنا من كان .

ويعطف على « عبد الله » « رسوله » فيجمع بذلك بين أبرز وصفين له ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبهما وصفه القرآن الكريم « ... قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا »(٧٣) ، و «قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد »(٧٤) .

---

(٧١) الآية ١ من سورة الاسراء .
(٧٢) فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب جـ ٤ ص ٢٢١١ .
(٧٣) الآية ٩٣ من سورة الاسراء .
(٧٤) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

وعطف « رسول » على « عبد الله » هو من قبيل عطف الخاص على العام اذ معنى الرسالة يدخل فى العبودية ، فان الرسل جميعا عباد الله « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين »(٧٥) .

ومن الواضح بلاغة أن عطف الخاص على العام يكون لمزية فى الخاص ، وأى مزية بعد الرسالة التى هى آية اصطفاء الله ؟ « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس »(٧٦) ، كما أن فى ذكرها حثا على طاعة الرسول واتباعه اذ هو مبلغ عن ربه « وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله »(٧٧) .

وحين يذكر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هرقل لا يخلع عليه الألقاب الكبيرة ، وفى الوقت نفسه لا يغض من قدره ، بل يصفه بما يرضى كبرياء الملوك ويحفظ للدين عظمته ، وعزة معتنقيه ، فيقول ــ عليه الصلاة والسلام ــ « الى هرقل عظيم الروم » . وذلك يشهد لبلاغة النبوة بأنها البلاغة التى تضع فى الاعتبار جميع الظروف والأحوال المحيطة بالكلام وتصوغ التعبير وفقها جميعها دون اغفال لشىء منها. فما وصفه بأنه ملك الروم ، لأنه « لا ملك له ولغيره الا بحكم دين الاسلام ، ولا سلطان لأحد الا لمن ولاه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو ولاه من أذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بشرط. ولم يقل هرقل فقط ، بل أتى بنوع من الملاطفة فقال « عظيم الروم » أى الذى يعظمونه ويقدمونه »(٧٨) .

وهذا المنهج فى الدعوة يأتى مطابقا لسبيلها الذى رسمه الله

---

(٧٥) الآية ١٧٠ من سورة الصافات .
(٧٦) الآية ٧٥ من سورة الحج .
(٧٧) الآية ٦٤ من سورة النساء .
(٧٨) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ١٠٨ .

تعالى فى القرآن « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »(٧٩) .

ولهذا أمر تبارك وتعالى — موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام باللين فى مخاطبة فرعون حين يدعو انه الى الله تعالى « اذهبا الى فرعون انه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى »(٨٠) .

وبهذا الاسلوب الذى جمع بين اللين والحذر يعلمنا — صلى الله عليه وسلم — « .. فى المكاتبة استحباب التوقى ، واستعمال الورع فيها ، فلا يفرط ولا يفرط »(٨١) .

وبعد ذلك تجىء تحية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لهرقل : « سلام على من اتبع الهدى » انها تحية الاسلام ، التى اختصت بلفظ السلام ، والسلام البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب »(٨٢) . وهذه التحية بما لها من معنى السلامة التامة صالحة لأن يخاطب بها جميع الناس على اختلاف منازلهم ، ففاقت كل التحايا التى وضعها البشر مرتبطة بزمن معين ، أو مخاطب معين « وكانت العرب تقول فى تحيتهم بينهم فى الجاهلية : أنعموا صباحا .. من النعمة — بفتح النون — وهى طيب العيش والحياة ، ويصلونها بقولهم صباحا .. ، وكذلك يقولون : أنعموا مساء .. وكانت الفرس تحيتهم (هزا رسالة ميمابى) أى تعيش ألف سنة ... ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئات خاصة عند دخولهم عليهم كالسجود ونحوه ، فشرع الملك القدوس السلام — تبارك وتعالى — لأهل الاسلام تحية بينهم : سلام عليكم وكانت أولى من تحيات الأمم التى

---

(٧٩) الآية ١٢٥ من سورة النمل .

(٨٠) الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ من سورة طه .

(٨١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ١٠٨ .

(٨٢) بدائع لابن القيم جـ ٢ ص ١٤٧ .

منها ما هو محال وكذب نحو قولهم : تعيش الف سنة ، وما هو قاصر المعنى مثل أنعم صباحا ، ومنها ما لا ينبغى الا لله كالسجود ، فكانت التحية بالسلام أولى من ذلك لتضمنها السلامة التى لا حياة ولا فلاح الا بها »(٨٣) ومع ما فى تحية الاسلام من معنى السلامة،فان فيهاايضا روح الاسلام العادل من حيث مخاطبة الناس جميعهم بها •

ومما يزيد معنى السلامة ويضاعفها تعدية السلام بعلى ، ان فى تعديته بعلى « ايذانا باشتمال معناه ــ على المخاطب به ــ كاشتمال لباسه عليه ، وكان حرف على أليق الحروف به »(٨٤) •

وفى تسليم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ على هرقل جاء لفظ السلام منكرا لأن السلام فى التحية دعاء وطلب « وهم فى ألفاظ الدعاء والطلب انما يأتون بالنكرة لأن هذه الألفاظ جرت مجرى النطق بالفعل ، فسلام عليك جار مجرى : سلمك الله ، والفعل نكرة فأجروا أن يجعلوا اللفظ الذى هو جار مجراه وكالبدل منه نكرة مثله »(٨٥) •

على أن فى التحية الموجهة من النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى هرقل غاية الحيطــة والحذر ، فهى ــ وان كانت سلاما ــ غير أن هرقل نيطت افادته من خيرها باتباعه للهدى ، اذ هى موجهة الى من اتبع الهدى •

والهدى « هو العلم بالله ودينه ، والعمل بمرضاته ، وطاعته ، فهو العلم النافع والعمل الصالح »(٨٦) • وفى تعريف الهدى دلالة على

---

(٨٣) السابق نفسه جـ ٢ ص ١٦١ •
(٨٤) السابق نفسه جـ ٢ ص ١٦٢ •
(٨٥) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ١٧٢ •
(٨٦) السابق نفسه جـ ٢ ص ١٧ •

أنه الهدى المعهود المعروف بأنه هدى الله « قل ان هدى الله هو الهدى »(٨٧) ، والنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ضمن هذه الكلمة ، بذلك التعريف معنى القصر ، وكأنه يقول : سلام على من اتبع الهدى الذى لا هدى سواه ، فان التعريف فى قوة الحصر(٨٨) .

وبهذا التوقى والحيطة فى التحية استدل العلماء لمنع ابتداء الكافر بالسلام وهو مذهب الشافعى وأكثر العلماء(٨٩) ، « وقد جاء النهى عنه فى أحاديث صحيحة وفى الصحيحين أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام واضطروهم الى أضيق الطريق » قال القرطبى : فى قوله : واذا لقيتموهم فى طريق فاضطروهم الى أضيقه » معناه : لا تتنحوا لهم عن الطريق الضيق اكراما لهم واحتراما .. وليس المعنى : اذا لقيتموهم فى طريق واسع فالجئوهم الى حرفة حتى يضيق ، لأن ذلك أذى لهم ، وقد نهينا عن أذاهم بغير سبب »(٩٠) .

ولا نغفل ــ ونحن بصدد معنى تحية الاسلام ــ ما ذكر من أن السلام فى تلك التحية « اسم من أسماء الله جل وعز ، فاذا قال المؤمن لأخيه : السلام عليكم ، فانما يعوذه بالله ، ويبرك عليه باسمه .. بدليل حديث أبى هريرة .. قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ان السلام اسم من أسماء الله فأفشوه بينكم »(٩١) .

---

(٨٧) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .

(٨٨) ينظر : بدائع الفوائد جـ ٢ ص ١٨ .

(٨٩) ينظر : عمدة القارى جـ ١ ص ٩٩ ، وصحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ١١٠ .

(٩٠) فتح البارى جـ ١١ ص ٣٣ .

(٩١) شان الدعاء للخطابى ص ٤٤ ، ٤٥ وينظر أيضا صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٤ ص ١٤١ ، وفتح البارى جـ ١١ ص ١١

« فتضمن لفظ السلام معنيين : أحدهما ذكر الله .. والثانى طلب السلامة ، وهو مقصود المسلم ، فقد تضمن سلام عليكم اسما من أسماء الله ، وطلب السلامة منه »(٩٢) .

واذا كان افظ « سلام » فى كتاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى هرقل جاء بلفظ النكرة ، بينما جاء معرفا فيما حكاه القرآن من خطاب موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون أمرا له ولهارون من الله تعالى فى قوله ـ سبحانه ـ « فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى »(٩٣) ، فذلك لأن « تسليم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تسليم ابتدائى ، ولهذا صدر الكتاب به حيث قال : من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى » ففى تنكيره ما فى تنكير سلام من الحكمة وقد تقدم بيانها .

وأما قول موسى (والسلام على من اتبع الهدى) فليس بسلام تحية ، فانه لم يبتدىء به فرعون بل هو خبر محض ، فان من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه ، فانه قال له (فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى .. انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) أفلا ترى أن هذا ليس بتحية فى ابتداء الكلام ولا خاتمته ، وانما وقع متوسطا بين الكلامين اخبارا محضا عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى ، ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس

---

(٩٢) بدائع الفوائد ج ٢ ص ١٥٩ .

(٩٣) الآية ٤٧ من سورة طه .

على حبه وايثاره من السلامة ، وانه ــ ان اتبع الهدى الذى جاءه به فهو من أهل السلام »(٩٤) •

ولا يخفى أن مجىء التحية جملة اسمية ــ وهى تفيد التقرر والثبوت ــ أليق ما يكون تناسبا بطلب السلامة للمخاطب ، اذ دوام السلامة مطلب كل حى ومرتجاه،وهى ــ وان جاءت بلفظ الخبر ــ الا أن معناها انشائى ، انها دعاء ، ولكن لماذا أوثرت الجملة الخبرية قالبا للتعبير عن هذا الدعاء ؟

اخال السر فى ذلك : رغبة المتكلم فى ادخال السرور على قلب المخاطب ، وهو ما عبروا عنه ــ فى تعليلهم لوقوع الخبر موقع الانشاء ــ بالتفاؤل(٩٥) ، وهو شعور لدى المتكلم يكشف عنه ذلك الاسلوب الانشائى الذى اكتسى ثوبا من صيغة الخبر ، « وكأن عبارة الخبر هنا تجذب المعنى الانشائى من حيز التوقع والرجاء الى حيز الوقوع والكينونة »(٩٦) •

واذا كانوا قد اعتبروا تلك الأسرار فى الانشاء حين يعبر عنه بصيغة الفعل ــ ماضيا كان أم مضارعا ــ فانها فى الانشاء الذى يعبر عنه بجملة اسميه آكد •

---

(٩٤) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ١٨٩ •

(٩٥) ينظر : الايضاح جـ ٢ ص ٥٩ ، وكذا المطول ص ٢٤٦ ، ومما يؤكد كون السلام ــ الذى هو فى حقيقته دعاء ــ قد صيغ فى أسلوب خبرى للتفاؤل ما بينه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم من أن آثر افشاء السلام انتشار التحاب ، اذ يقول ــ صلى الله عليه وسلم : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » رواه مسلم •

(٩٦) قراءة فى الأدب القديم د• أبو موسى ص ٣١٢ •

وتمضى الرسالة النبوية فى تسلسل : من تصديرها باسم مرسلها الى ذكر المخاطب بها فى ملاطفة ، ثم توجيه التحية اليه — فى حذر وتوق حيث جعلت التحية مشروطة باتباعه الهدى .. ، وللانتقال من هذا كله الى الغاية الأصلية من الرسالة تجىء « أما بعد » لتصل ما قبلها من كلام بما يذكر بعدها وهى « فصل الخطاب » الذى أوتيه داود وامتن الله — تعالى — به عليه — فى بعض معانيه(٩٧) — حيث قال تعالى « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب »(٩٨) .

قال سيبويه : « أما بعد معناها مهما يكن من شىء ، وقال أبو اسحاق الزجاج اذا كان الرجل فى حديث فأراد أن يأتى بغيره قال أما بعد »(٩٩) ، فهى وسيلة للتمهيد والانتقال من كلام الى كلام آخر ، مع ما فى معناها من تصميم المتكلم واصراره على ما يجىء بعدها ، ولما فى أما من معنى الشرط تقترن الفاء بجوابها ، وهذه الفاء أيضا من وسائل ربط الكلام بعضه ببعض فان من وجوه استعمالها « أن تكون رابطة للجواب حيث لا يصلح لأن يكون شرطا »(١٠٠) وذلك فى مواضع معينة عنى النحويون بذكرها(١٠١) .

ففى « أما بعد » وفى الفاء التى تجىء فى جوابها ما يؤكد لنا حرص اللسان العربى على الترابط والتلاحم فى تعبيره ، الذى هو فى الحقيقة تصوير لكوامن نفسه ، وخفايا شعوره .

ونجد أنفسنا بعد ذلك أمام الغاية من الرسالة ، : « فانى أدعوك

---

(٩٧) ينظر : تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٠ ، وكذا فتح البارى جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(٩٨) الآية ٢٠ من سورة ص .

(٩٩) فتح البارى جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(١٠٠) مغنى اللبيب لابن هشام جـ ١ ص ١٤٠ .

(١٠١) ينظر : المغنى لابن هشام جـ ١ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الأريسيين » .

جاءت الغاية مرتبطة بما سبقها من وسائل مهدت لها ، وذلك بحرف الفاء الذى جاء لما فى أما من معنى الشرط ، وأكدت الدعوة بأن اهتماما بشأنها ، وحثا للمخاطب على اجابتها ، وهنا نلحظ تحدث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم عن نفسه بضمير المتكلم .

وفى مطلع الكتاب ذكر ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه باسمه الشريف وصفته وذكر هرقل باسمه ، كما وصفه بأنه عظيم الروم ، فندرك ـ اذن أن الاسلوب عند الوصول الى الغاية من الوضوح قد تحول عما كان عليه فى البداية ، فانتقل من غيبة الى تكلم ، انه التفات ، واذا كان الالتفات «شجاعة العربية» .. ولا يكون الا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من اسلوب الى اسلوب »(١٠٢) فان فائدته هنا ـ فيما يبدو لى ـ أن يكون تبليغ الدعوة تبليغا مباشرا على لسانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذ هو المكلف باعلانها الى الناس فى صراحة ووضوح .

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك »(١٠٣) وفى اسنادها الى ضمير المتكلم فى « فانى أدعوك » ما يحقق ذلك ، ثم ان فى خطاب هرقل بضمير المخاطب التفاتا آخر(١٠٤) من غيبة الى خطاب

---

(١٠٢) المثل السائر لابن الأثير ص ١٧١ ، ١٧٣ ج ٢ .

(١٠٣) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(١٠٤) لا مانع من تعدد الالتفات مع تعدد الملتفت عنه ما دام كل واحد من هذه الالتفاتات تحقق فيه : كون الملتفت عنه والملتفت اليه واحدا ، ولهذا نظير فى القرآن الكريم ، ذلك قوله تعالى « انا أرسلناك

ويبدو فيه قصد مواجهته بالدعوة مواجهة صريحة لتلزمه الحجة ، كما أن فى خطابه خطاب المفرد اشعارا بأنه أمام الدعوة كسائر من يدعى اليها ، دون تمييز أو تعظيم وذاك جانب آخر من بلاغة التعبير حيث جاء مطابقا لمبادىء الاسلام فى المساواة وأما متعلق الفعل أدعو فهو « بدعاية الاسلام » و « دعاية » مصدر من الفعل « دعا » يقال : دعا دعاية نحو شكا شكاية(١٠٥) ، وذكر أيضا انه جاء فى رواية لمسلم « أدعوك بداعية الاسلام » وبهذا روى أيضا لدى البخارى فى باب الجهاد(١٠٦) ، وفسرت الكلمتان : دعاية الاسلام ، وداعية الاسلام بكلمة التوحيد ، على أن داعية الاسلام قصد بها الكلمة الداعية الى الاسلام(١٠٧) • وذكر النووى أيضا فى شرحه لمسلم أن «داعية » يجوز أن تكون مصدرا بمعنى دعوة ، نقل ذلك عن القاضى ، فقال(١٠٨) : قال القاضى ويجوز أن تكون داعية هنا بمعنى دعوة كما فى قوله تعالى « ليس لها من دون الله كاشفة »(١٠٩) ، وعلى هذا يكون : « دعاية وداعية » فى هذا الكتاب مصدرين من مصادر الفعل « دعا » وقد

شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله » ـ الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الفتح • ففى ـ لتؤمنوا بالله التفات من التكلم « أرسلنا » الى الغيبة ، وفى « رسوله » التفات آخر من الخطاب « الكاف فى أرسلناك » الى الغيبة ، وينظر فى هذا : البرهان للزركشى جـ ٣ ص ٣٣١ وما بعدها •

(١٠٥) فتح البارى جـ ١ ص ٣٢ •

(١٠٦) عمدة القارى جـ ١ ص ٨٨ •

(١٠٧) ينظر : شرح صحيح مسلم للنووى جـ ١٢ ص ١١٠ ، وكذا فتح البارى جـ ١ ص٣٢

(١٠٨) شرح صحيح مسلم جـ ١٢ ص ١١٠ •

(١٠٩) الآية ٥٩ من سورة النجم •

نص على ذلك أيضا صاحب لسان العـرب قال(١١٠) : « وفى رواية بداعية الاسـلام ، وهو مصـدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة » ، واذا كان ذلك كذلك فلماذا آثر ـ صلى الله عليه وسلم ـ « دعـاية وداعية » ؟ بينما فى موضعين آخرين نراه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستعمل « دعوة » ، وذلك فى قوله : « واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينهـا وبين الله حجـاب »(١١١) ، وفى قـوله أيضـا : « أنا دعـوة أبى ابراهيم »(١١٢) .

لعل لكل من هذين المصدرين : دعاية ، وداعية من وجوه التناسب ما يجلعهما أليق بمجال الاعلام بالاسلام والدعوة اليه ، ذلك أمـر يغلب على ظنى ، أما دعوة المظلوم فقد سيقت فى مقام التحذير منها، لسرعة استجابتها ، فناسب أن تكون بلفظ فيه سرعة ايقاع أيضا ، كما أن دعوة ابراهيم بشأن بعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما كانت من نبى ـ والنبى مستجاب الدعاء ـ دون أن يطيل أو يلح فى دعائه ، ناسب ذلك تلك الدعوة بما لصـيغتها من ايقاع سريع اشـعارا بسرعة اجابتها ، وهذا ـ فى تقديرى ـ من روائع المطابقات التى تراعى ما بين الكلمة والمعنى الذى سيقت فيه من كافة وجوه التناسب حتى جرس الكلمة وعلاقته بالسياق(١١٣) .

واذا كانت الدعوة الى الاسـلام أجملت فى هذا التعبـير « فانى

---

(١١٠) ص ١٣٨٦ ط دار المعارف .

(١١١) رياض الصالحين ص ١١٣ .

(١١٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٦ .

(١١٣) لعل هذان ما قصد اليه عبد القاهر حين فسر البلاغة بأنها أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به وأكشـف عنه وأتم له ، وأحرى بأن يكسـبه نبلا ، ويظهر فيه مزية (ص ٤٠ ـ الدلائل) .

أدعوك بدعاية الاسلام » فانها تبين بوضوح فى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد ذلك

« أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » • دعوة صريحة الى اعتناق الاسلام والدخول فيه ، على النحو الذى خاطب الله تعالى به أهل الكتاب(١١٤) : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة»(١١٥) و « تسلم » هو جواب هذا الأمر ، وجاء هكذا خاليا من كل متعلق ليبقى لهذا الجزاء عمومه فى الدنيا والآخرة ، وقد جاء فى رواية للبخارى فى باب الجهاد بلفظ « أسلم أسلم يؤتك » بتكرار « أسلم » فيحتمل التأكيد ، ويحتمل أن يكون الأمر الأول للدخول فى الاسلام ، والثانى للدوام عليه(١١٦) ، كما فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله »(١١٧) •

ويرجح العلامة العينى كون الثانى توكيدا ، ويرى أن الفعل الذى تكرر فى الآية مختلف فى الموضعين فيقول : « الأصوب أن يكون من باب التأكيد ، والآية فى حق المنافقين معناها : «يا أيها الذين آمنوا نفاقا آمنوا اخلاصا ، كذا فى التفسير »(١١٨) و « يؤتك الله أجرك مرتين » يدخل أيضا فى الجزاء المترتب على الدخول فى الاسلام ، وهو اما جواب ثان للأمر ، واما بدل منه ، واما جواب لأمر محذوف تقديره » « أسلم » على ما صرح به البخارى فى الجهاد « أسلم يؤتك الله »(١١٩) •

---

(١١٤) هذا ما جاء فى توجيه الخطاب فى الآية فى بعض وجوهه انظر : (تفسير البيضاوى ص ٢٩ طبعة بهامش المصحف ــ نشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر) •

(١١٥) الآية ٢٠٨ من سورة البقرة •

(١١٦) فتح البارى جـ ١ ص ٣٢ •

(١١٧) الآية ١٣٦ من سورة النساء •

(١١٨) عمدة القارى جـ ١ ص ٩٣ •

(١١٩) السابق نفسه •

واعطاؤه الأجـر مرتين لكونه كان مؤمنا بنبيه ثم آمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحتمل أن يكون تضعيف الأجر له من جهة اسلامه ، ومن جهة ان اسلامه يكون سببا لدخول أتباعه »(١٢٠) .

على أن هذا الاحتمال الثانى ـ ان قبل فى حق هرقل ـ فانه لا يقبل فى حق غيره من أهل الكتاب ممن لا سلطان له ولا اتباع ، حين يؤمن فيؤتى أجرين ، يكون أحدهما على ايمانه بكتابه ، وآخرهما على ايمانه بالقرآن الكريم ، والقرآن قد صرح بذلك .

« الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ... »(١٢١) وكذا قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم »(١٢٢) . وقد حمل ابن عباس هذه الآية ، وآية القصص على مؤمنى أهل الكتاب، وأيد ذلك بحديث الشعبى عن أبى بردة عن أبيه عن أبى موسى الأشعرى قال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران » خرجاه فى الصحيحين »(١٢٣) .

---

(١٢٠) فتح البارى جـ ١ ص ٣٢ .

(١٢١) الآيات : ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ من سورة القصص .

(١٢٢) الآية ٢٨ من سورة الحديد .

(١٢٣) ينظر : تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٧ .

ولاشك أن الاسلام الذى يثمر سلامة فى الدنيا والآخرة ، وذلك الأجر المضاعف ليس مجرد اعلان الشهادة ، والاقـرار بعقيدة التوحيد فقط انه اسلام الوجه لله ، وطاعته وطاعة رسوله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ والاحتكام الى كتابه فى أمور العباد ، انه الانتظام مع الكون أجمعه الذى أسلم لرب العالمين ، على النحو الذى كان من أبى الأنبياء حين أمره الله تعالى أن يسلم « اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين »(١٢٤) .

ولعلنا ـ بعد ما تقدم ـ ندرك بلاغـة الايجاز الذى جاء عليـه خطابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهرقل أن يدخل فى الاسلام فان قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أسلم تسلم غاية فى البلاغ »(١٢٥) وهو أيضا « فى نهاية من الاختصار وغاية من الايجاز ، والبلاغة ، وجمـع المعـانى »(١٢٦) .

ويضاعف من روعة هذا الايجاز ما فى التعبـير « أسلم تسلم » من تجنيس فى اللفظين » فان فيه جناس اشتقاق(١٢٧) وهو بلاريب جناس أبعد ما يكون من التكلف ، اذ هو من كلام من شهد له القرآن بتجنب التكلف «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين»(١٢٨) .

واذا كانت بلاغـة الجناس وجماله لما فيه من خلابة تتمثـل فى « حسن الافـادة مع أن الصورة صـورة التكرير والاعـادة »(١٢٩)

---

(١٢٤) الآية ١٣١ من سورة البقرة .

(١٢٥) فتح البارى جـ ١ ص ٣٢ .

(١٢٦) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ١٠٨ .

(١٢٧) فتح البارى جـ ١ ص ٣٢ ، وكذا عمدة القارى جـ ١ ص ٩٥

(١٢٨) الآية ٨٦ من سورة ص .

(١٢٩) أسرار البلاغة ص ١١ .

وأن المعبر به « كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها »(١٣٠) فضلا عما بين اللفظين من تجانس الحروف .. كلها،او معظمها(١٣١) وتجاوب صوتى يلتقيان فيه على نغم يتحد أو يغلب عليه ذلك(١٣٢) ، فان الجناس فى « أسلم تسلم » ــ وهو جناس اشتقاق ــ قد جمع كل تلك الأسباب التى هى سر الجمال فى الجناس .

وهكذا يحفز ــ صلى الله عليه وسلم ــ هرقل الى الدخول فى الاسلام ، بذكر الأجر المضاعف اذا أجاب الدعوة ، ودخل فى دين الحق موقنا ، أما اذا لم يجب ، ورفض الأذعان للحق فان مسئوليته ثقيلة حيث يبوء باثمه واثم رعيته ــ آنذاك ، يبين ذلك كله قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « فان توليت فان عليك اثم الأريسيين » .

والأريسيون اختلف فى المراد بهم على أقوال : « أصحها وأشهرها انهم الأكارون »(١٣٣) أى الفلاحون والزارعون .. ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب ، وهذا القول هو الصحيح وقد جاء مصرحا به فى رواية .. فى كتاب دلائل النبوة للبيهقى وفى غيره « فان عليك اثم الأكارين »،وفى رواية ذكرها أبو عبيد فى كتاب الأموال« والافلايحل بين الفلاحين وبين الاسلام » وفى رواية ابن وهب « واثمهم عليك » قال أبو عبيد : **ليس المراد بالفلاحين الزارعين خاصة ، بل المراد بهم جميع أهل مملكته .**

---

(١٣٠) السابق نفسه ص ٤ .

(١٣٢،١٣١) ينظر فى ذلك : فن الجناس للأستاذ على الجندى ــ رحمه الله ــ ص ٢٩ ، ٣٠ ، وكذا الصور البديعية د. حفنى شرف (القسم الثانى ص ٢٧ ، ٢٨) .

(١٣٣) فى القاموس المحيط : « الأكرة : الحفرة يجتمع فيها الماء فيغرق صافيا ، والأكر والتأكر حفرها ومنه الأكار للحراث » .

الثـــانى(١٣٤) : انهم اليهـــود والنصارى وهم أتبـــاع عبد الله ابن أريس(١٣٥) الذى تنسب اليه الأريسية من النصارى .

الثالث : « انهم الملوك الذين يقودون الناس الى المذاهب الفاسدة ويأمرونهم بها »(١٣٦) .

« وقد ورد تفسير الأريسيين بمعنى آخر ، فقال الليث بن سعد عن يونس فيمـــا رواه الطـــبرانى فى الكبير من طريقـــة :ا لأريسيون العشارون يعنى أهل المكس ، وهذا ــ ان صـــح انه المراد ــ فالمعنى المبالغة فى الاثم ، ففى الصحيح فى المرأة التى اعترفت بالزنا « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لقبلت »(١٣٧) .

وتتضح لنا هذه المبالغة اذا علمنا أن المكس معناه : جباية المال ، والنقص والظلم ، ودراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأســـواق فى الجاهلية »(١٣٨) .

فيكون اثم هرقل حـــين يعرض عن قبـــول الدعوة كاثم هـــؤلاء العشارين فالعبارة على هذا ــ أى فان عليك اثم الأريسيين ــ اكتست ثوبا تشبيهيا وقصد بهذا التشبيه ترهيبه من التولى .

وقد بينا ــ فيما سبق ــ أن الأريسيين فى أصح التفاسير لهـــا وأشهرها : الأكارون وأن المقصـــود بهؤلاء التنبيه على جميـــع الرعايا

---

(١٣٤) أى من الأقوال .

(١٣٥) عبد الله بن أريس رجـــل كان تعظمه النصـــارى ابتدع فى دينهم أشياء مخالفة لدين عيسى ، وقيل انه من قوم بعث اليهم نبى فقتلوه (فتح البارى جـ ٨ ص ١٧٨) .

(١٣٦) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(١٣٧) فتح البارى جـ ١ ص ٣٣ .

(١٣٨) القاموس المحيط .

لأنهم الأغلب . ، أما كيف يتحمل هرقل اثم رعيته عند رفضه للدعوة الاسلامية ، فقد وضح الخطابى ذلك حيث يقول : « أراد(١٣٩) أن عليك اثم الضعفاء والأتباع اذا لم يسلموا تقليدا له ، لأن الأصاغر « أتباع الأكابر » أهـ كلام الخطابى ، وهذا لا يسقط اثمه هو لعدم اتباعه ذلك أن فى الكلام حذفا دل المعنى عليه وهو : فان عليك مع اثمك اثم الأريسيين . لأنه اذا كان عليه اثم الاتباع بسبب انهم اتبعوه على استمرار الكفر فلأن يكون عليه اثم نفسه أولى ، وهذا يعد من مفهوم الموافقة،ولا يعارض بقوله تعالى : «ولا تزر وازرة وزر أخرى »(١٤٠) لأن وزر الاثم لا يتحمله غيره،ولكن الفاعل المتسبب والمتلبس بالسيئات يتحمل من جهتين : جهة فعله وجهة تسببه »(١٤١) .

والتعبير « فان توليت فان عليك اثم الأريسيين » يحفل بالأسرار البلاغية التى تنطوى فى تركيبه ، فهو يرتبط بما سبقه من كلام بهذه الفاء التى عطفت الجملة الشرطية « ان توليت فان عليك .. الخ » على جملة « أسلم تسلم » والترتيب فى الفاء هنا ترتيب ذكرى ومعناه ـ كما يقول العلامة الأمير(١٤٢) « حسن ذكر ما بعدها بأثر ما قبلها » اذ انه من المستحسن عقب الدعوة الى الاسلام وبيان الجزاء عليه أن يبين عقبى عدم اجابة الدعوة ، وفى العبارة حذف ـ كما سبق أن ذكرنا ـ والتقدير : فان عليك مع اثمك اثم الأريسيين ، وفى هذا الحذف ايجاز ، وقد جاء الحكم بتحمله اثم الرعية مؤكدا بعدة مؤكدات : ان ، واسمية الجملة ، والقصر لاستفاد من تقديم خبر

---

(١٣٩) ـ أى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله « فان توليت فان عليك اثم الأريسيين » .

(١٤٠) الآية ١٨ من سورة فاطر .

(١٤١) فتح البارى جـ ١ ص ٣٣ .

(١٤٢) فى حاشيته على مغنى اللبيب جـ ١ ص ١٤٠ ط /١٣٧٢هـ

ان على اسمها ، وهو يؤكد لهرقل عاقبته باختصاصه وحده بهذا الاثم الكبير ، اثم الرعية كلها فضلا عن اثمه هو لعدم ايمانه وهذه المؤكدات مجتمعة تتضافر فى تقرير حقية هذا الجزاء عند التولى ، مع اختصاص هرقل وحده به ، وفى ذلك ترهيب له من الاعراض عن الاسلام لما ظهر من عظم الاثم المترتب عليه .

وفى التعبير عن الاعراض بالتولى « فان توليت » استعارة ، ومن الواضح أنها استعارة تبعية .

ولما كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مهتما بأمر الدعوة الاسلامية ويحمل همومها ، ويشتد حرصه على قبول الناس لها ويحزنه كثيرا الا يستجاب له « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين »(١٤٣) ، فانه ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين يبين ما يترتب على الاعراض من جزاء ــ لا يتصور هذا الاعراض الا أمرا مشكوكا فى كينونته ، ولذا يستعمل فى بيان عقبى التولى أداة الشرط « ان » يحملها مشاعره المحبة للهدى ، الكارهة للاعراض عن الحق ، فضلا عما تحمله هذه الأداة أيضا من حسن الظن بالمدعو ، وأن اعراضه حين يتصور فانه غير مقطوع به .

ويختتم كتابه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بهذه الآية الكريمة :

و « .. يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون »(١٤٤) .

والواو التى تتقدم تلك الآية هنا اما أن تكون من كلامه ــ صلى

---

(١٤٣) الآية ٣ من سورة الشعراء .

(١٤٤) الآية ٦٤ من سورة آل عمران .

الله عليه وسلم ـ فهى حينئذ واو العطف عطفت ما بعدها على أول الكتاب ، ويكون تقدير الكلام « أدعوك بدعاية الاسلام ، وأقول لك : « يأهل الكتاب تعالوا ... الخ » . واما أن تكون من كلام أبى سفيان لأنه لم يحفظ جميع ألفاظ الكتاب فاستحضر منها أول الكتاب فذكره ، وكذا الآية ، وكأنه قال : كان فيه كذا ، وكان فيه بأهل الكتاب(١٤٥) .

وأنا أميل الى اعتبار الواو من كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنها ـ على هذا الاعتبار تحقق للكتاب نوعا من الترابط والتماسك بين أوله وآخره مما يتناسب مع بلاغة النبوة ، وقد وضعنا وجود هذه الآية بكتاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام سؤال مهم ، كيف كتبها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كتبه وقد كانت هذه الكتب سنة ست من الهجرة ، بينما نزولها كان فى عام الوفود سنة تسع من الهجرة ؟ حيث نزلت فى وفد نصارى بخران(١٤٦) .

وقد أجيب : بأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب ذلك قبل نزول الآية فوافق لفظ لفظها ، وقيل بل نزلت سابقة فى أوائل الهجرة، واليه يومىء كلام ابن اسحاق ، وقيل نزلت فى اليهود ، وجوز بعضهم نزولها مرتين وهو تعبد(١٤٧) .

ولا يرجح المفسرون ولا المهتمون بالسنة بعض هذه الأقوال على بعض ، فيبدو أنها جميعا تتساوى ولا مرجح لواحد منها على ماعداه، وأيا كان الأمر فاننا ندرك من ذكرها ختاما لكتاب النبى عليه الصلاة

---

(١٤٥) ينظر : فتح البارى جـ ١ ص ٣٣ .

(١٤٦) ينظر : روح المعانى للألوسى جـ ٣ صص ١٧٠ ، وكذا : فتح البارى جـ ١ ص ٣٣

(١٤٧) فتح البارى جـ ١ ص ٣٣ .

والسلام « أن هذا الكتاب المبين قد ملأ حياة الرسول ، وشغل عقله وقلبه ، وأورثه الحكمة والحجة والبيان .

ولقد كانت معاني محمد — في ارشاداتها — ربانية ، وكانت الفاظه معرضا رائعا لمعانيه ، واذا كان القرآن أستاذ معانيه فان أثره عليه عظيم جليل »(١٤٨) .

وهذه الدعوة التى يوجهها — صلى الله عليه وسلم — الى أهل الكتاب « دعوة منصفة من غير شك ، دعوة لا يريد بها النبى — صلى الله عليه وسلم أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين ، كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد ، لا يعلو بعضهم على بعض ، ولا يتعبد بعضهم بعضا »(١٤٩) ، فان الكلمة السواء — كما أخرج الطبرى .. عن أبى العالية .. لا اله الا الله » ، وعلى ذلك يدل سياق الآية الذى تضمنه قوله « ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » فان جميع ذلك داخل تحت كلمة الحق »(١٥٠) .

أما سواء فمعناها : عدل ، وقيل ان سواء مصدر بمعنى مستوية ، أى لا يختلف فيها التوراة والانجيل والقرآن ، أو لا اختلاف فيها بكل الشرائع ... والظرف بيننا وبينكم يتعلق بسواء ، أو يراعى أن الكلام تم عند سواء ثم استؤنف «بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ، فيكون الظرف خبرا مقدما ، وأن وما بعدها مبتدأ مؤخر ، « ولا نشرك به شيئا » هذه الجملة توكيد لما قبلها ، أو هى تأسيس ، والتأسيس أكثر فائدة ، وفى اطلاق « كلمة » على كلمة التوحيد — وهى كلام — مجاز مرسل ، أو استعارة(١٥١) وأما « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله »

---

(١٤٩) البيان النبوى د. محمد رجب البيومى ص ٦٧ ، ٦٨ .
(١٥٠) فتح البارى جـ ٨ ص ١٧٢ .
(١٥١) روح المعانى جـ ٣ ص ١٧١ .

فيعنى به : ألا يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله تعالى ، ويؤيده ما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث عدى بن حاتم « انه لما نزلت هذه الآية قال : ما كنا نعبدهم يا رسول الله ، فقال — صلى الله عليه وسلم — أما كانوا — يحللون »(١٥٢) لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال نعم ، فقال عليه الصلاة والسلام : هو ذاك ، قيل : والى هذا أشار سبحانه بقوله عز من قائل « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »(١٥٣) وذلك الاتخاذ معناه : « انهم أنزلوهم منزلة ربهم فى قبول تحريمهم لما لم يحرمه الله ، ولم يحله الله ، وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد الذى لا يستند الى دليل شرعى »(١٥٤) .

وفى النهاية يجىء هذا التوجيه « فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » ومجىء تلك الكلمة الفاصلة معمولة للفعل « قولوا » يكشف بوضوح عن طبيعة الدعوة الى الاسلام ، انها فى كل مراحلها ليست الا بلاغا عن الله تعالى ، كما أن منهج الدعوة ينبغى له أن يكون قائما على الالتزام بأمر الله تعالى فيها .

وتولوا : فعل ماض أسند الى ضمير أهل الكتاب ، والأمر الذى صدر على لسان النبى — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنين معه وهو « اشهدوا بأنا مسلمون » يراد به — والله أعلم — : « ازمتكم الحجة فوجب أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال أو صراع أو غيرهما اعترف بأنى انا الغالب وسلم لى الغلبة(١٥٥) . فهو على هذا « تعجيز لهم ، ويجوز أن يكون تعريضا

---

(١٥٢) ينظر فى هذه المعانى كلها : روح المعانى للألوسى جـ ٣ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(١٥٣) الآية ٣١ من سورة براءة .

(١٥٤) تفسير القرطبى ص ١٣٤٨ ط دار الشعب .

(١٥٥) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٣٥ .

بهم،لأنهم اذا شهدوا بالاسلام لهم فكأنهم قالوا انا لسنا كذلك(١٥٦) .

وقد تأكد فى نهاية الكتاب الاعتناء بأمر التوحيد وتخليصه من كل شوائب الشرك ، فكانت هذه الجمل المتوالية : تعالوا الى كلمة سواء ، بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله .

واذا ربطنا بين هذه الخاتمة وبين ما جاء فى فاتحة الكتاب من وصف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأنه « عبد الله » ازداد يقيننا بما للبلاغة النبوية من سمو ، لما بين بدء الرسالة ونهايتها من تمام التناسب مع المطابقة التامة لمقتضى الحال ، اذ المخاطب بها يؤله المسيح ، فكانت العناية مزيدة بهدم تلك العقيدة الباطلة .

ولا نغفل نسق الكتاب فى تدرجه النفسى من البدء بالملاينة والملاطفة بوصف هرقل بأنه عظيم الروم » ، وبترغيبه فى دخول الاسلام بذكر السلامة أثرا له « أسلم تسلم » ، ثم ترهيبه من عظم الاثم الذى يبوء به وحده اذا ما أعرض « فان توليت فان عليك اثم الأريسيين » وأخيرا تلك اللفتة الى أن الرسل جميعا جاءوا بكلمة العدل ، كلمة التوحيد التى يقف الناس جميعا فى ظلالها عبيدا لله وحده يسلمون اليه وجوههم ، ويتلقون منه وحده شرائعهم ومناهجهم « ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنابعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا شهدوا بأنا مسلمون» .

هذا كله مع الايجاز الذى عرض الدعوة كلها ، وبين عاقبة الاعراض عنها ، واستنهض أهل الكتاب جميعا أن يعودوا الى أصول الرسالات السماوية ، فى كلمات معدودات .

---

(١٥٦) ينظر : روح المعانى جـ ٣ ص ١٧١ .

خاتمة البحث

فى دراستنا التى سبقت تحليل لواحد من كتب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى الملوك يدعوه فيه الى الدخول فى الاسلام ، واعتمدنا فى تحليله على محاولة فهم كل الظروف التى كانت تحيط بالمخاطب به متخذين من هذه الظروف ضوءا يهدينا الى ما اشتمل عليه الكتاب من معان ، صيغت وفق ما اقتضته هذه الظروف ، ورأينا ما اتسم به الكتاب من ايجاز شديد ، واعتماد على الحقيقة فى اسلوبه ، وتجنب للتنميق والترويق ، ثم ما كان للكتاب من نهج اسلامى فى بدئه بالبسملة، وانتهائه بواحدة من آيات القرآن الكريم تخاطب جميع أهل الكتاب بالانصاف والاجتماع على كلمة سواء •

وكل تلك أمور قصد اليها ، وهى بكل ما فيها البلاغة التى تتناسب تماما مع مقام الدعوة الى الاسلام موجهة الى ملك مثل هرقل ، ولكى نتحقق من ادراك هذه الأمور ، علينا ــ ونحن ندرس هذه الكتب وما كان على شاكلتها من معاهدات ومواثيق نبوية ــ أن نكون على علم تام بأن صاحب السنة المطهرة حامل لواء دين ، ومبلغ عن ربه ، ورسالته عامة ، لكل زمان ومكان •

فهو ــ فى كتبه تلك يبلغ الدعوة ، ويحرص فى تبليغه على أن يكون الابلاغ غاية فى الدقة لا تتعدد فيه الافهام ، أو تختلف الآراء ، كما أنه يحرص أيضا على أن تصل معانيه الى كل من يتوجه اليه بالخطاب •

فى ضوء هذه الاعتبارات نوقن بعظمة بلاغة النبوة ، فاذا كان شأن تلك الكتب الايجاز دون اطناب بايضاح أو تبيين فذلك لأنها « انما كانت للابلاغ أول الأمر ، ثم يأتى بعدها التفسير والتفصيل على ألسنة المرشدين ، والموكلين بالاجابة فيما يسألون عنه،فهى كذلك قائمة

على كفاية الابلاغ ، تلك الكفاية الوسطى التى لا افراط فيها ولا تفريط »(١) .

واعتماد الاسلوب على الحقيقة مقصود أيضا فى مؤازرته للايجاز، اذ الغاية لتلك الكتب الاعلام بدعوة الاسلام التى جوهرها التوحيد وليس مجالها أدب ترفده العاطفة ، ويوشيه الخيال ، ولكنها كلمات محددة تلتزم الدقة فى التعبير ، ولا تسمح لفظ أن يتجاوز موضعه الحقيقى الى صورة خيالية ، تكون ـ فيما بعد ـ مثارا للخلاف »(٢) .

وأما نهجها بدءا ونهاية واستمداد هذا النهج من الينبوع الاسلامى فذلك لأن « الأدب فى كل عصر ترجمة عن شعور صادق ، وقد كان احساس صاحب الرسائل ... دينيا عميقا ، فجاءت رسائله مضمخة بعبير الدين »(٣) .

على أن ثمة فى هذه الرسائل جانبا فى الغاية من الأهمية ، هو انها : « لا تغفل عقلية المرسل اليه،ولا اتجاهه الدينى ، ولا واقعه السياسى، وذلك ما لابد منه لدى الكاتب الحصيف الذى يتعمد اصابة الهدف فى يقظة واتقان »(٤) .

وللتأكد من كل ما تقدم ينبغى لدارس تلك الكتب أن يوازن بينها ويطالع مافيها من اختلاف،ثم يقوم بالموازنة مرة أخرى بين من أرسلت اليهم من حيث ظروفهم السياسية والدينية والفكرية ، ولسوف يجد ـ

---

(١) عبقرية محمود للعقاد ـ رحمه الله ص ٨٦ .

(٢) البيان النبوى . د. محمد رجب البيومى ص ١١٢ .

(٣) السابق نفسه ص ١٢٣ .

(٤) السابق نفسه ص ١١٣ .

يقينا ــ أن بلاغة هذه الكتب كانت فى مجيئها على هذا النحو من الدقة والايجاز ، مع ما فيها من مطابقة لمقتضى حال المخاطبين بها .

ولنضع الآن بين أيدينا كتابين آخرين أحدهما من كتب الدعوة الى الدخول فى الاسلام ، والآخر كتاب البيان تكليفات الاسلام لقوم أسلموا ــ الأول كتابه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى كسرى ملك الفرس ، والآخر كتابه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى وائل بن حجر الكندى .. أما كتاب كسرى فموجه الى عباد وثن ، ليسوا أهل دين ، انهم مجوس يعبدون النار(٥) ، ونجد الكتاب جاء مطابقا ــ فى دعوته هؤلاء الى الاسلام ــ لكل ما أحاط بهم من ظروف ، ونص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا . أسلم تسلم . فان أبيت فعليك اثم المجوس »(٦) .

المخاطب هنا ــ كما ذكرنا ــ ليس من أهل كتاب ، فكانت دعوته الى الاسلام واضحة أشد الوضوح ببيان دعائم الايمان ماثلة فى الايمان بالله ورسوله ، ثم اعلان الدخول فى هذا الدين ، بالنطق بالشهادتين ، مع اعتبار عالمية الرسالة جزءا من الشهادتين فى مخاطبة كسرى الذى لا يدرى شيئا عن رسالات السماء فهو أحوج أن يبصر بعالمية الاسلام ولا يذكر هنا من الأجر على الاسلام سوى السلامة

---

(٥) ينظر : فجر الاسلام لأحمد أمين ص ٩٨ ــ ١٠٤ وكذا تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٢٢ .

(٦) ينظر : الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ١٤٦ .

« أسلم تسلم » أما انتياء الأجر مرتين فلا وجـــه له هنا ، اذ مضاعفة الأجر جزاء لمؤمنى أهل الكتاب كما لم يشتمل الكتاب على تلك الدعوة التى طلبت الى أهل الكتاب الالتقاء مع الاسلام على كلمة سواء •• وافرادا لله ــ تعالى ــ بالعبادة ، وعدم اتخاذ أرباب من البشر استجابة لأمر الله تعالى « وقل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء ••• الآية » فرق واضح بين الكتابين هو فرق ما بين الدعويين بهما •

أما كتاب وائل بن حجر الكندى ، ــ وهو (أى وائل) قيـــل : من أقيال(٧) حضرموت ، وكان أبوه من ملوكهم ،•• وفد على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد بشر أصـــحابه بقدومه قبل أن يصل بأيام ، وقال : يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة من حضرموت طائعا راغبا فى الله عز وجـــل وفى رسوله وهو بقية أبناء الملوك » واستعمله النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على الأقيال من حضرموت »(٨) •

فقد(٩) كان موضوعه بيانا لأحكام الاسلام ، لبعض فرائضـــه ، وحدوده المقررة على بعض الجـــرائم ، وهو حافل بما نعده ــ نحن ــ غريبا ــ لكن ما فيه من غريب اذا وضـــع المخاطب به فى الا تبـــار لم يكن غريبا ، ذلك أنه اللغة التى يستعملها هؤلاء المخاطبون ، وأى غرابة فى أن يخاطب انسان بلغته ؟ وهذا هو الكتاب :

---

(٧) الأقيال : ملوك باليمن دون الملك الأعظم ، واحدهم قيل يكون ملكا على قومه ومخـــلافه ومحجـــره (غريب الحـــديث لأبى عبيد القاسم ابن سلام ــ جـ ١ ص ٢١٢) •

(٨) أسد الغابة لابن الأثير جـ ٥ ص ٨١ •

(٩) جواب « أما » فى قولنا من قبل : « أما كتاب وائل بن حجر »

« الى الأفيال العباهلة(١٠) ، والأرواع(١١) المشابيب(١٢) من أهل حضرموت ، بإقام الصلاة المفروضة ، وإداء الزكاة المعلومة عند محلها، فى التيعة(١٣) شاة لا مقورة(١٤) الأليط(١٥) ، ولا ضناك(١٦) وأنطوا(١٧) الثبجة(١٨) ، و فى السيوب(١٩) الخمس ، ومن زنى

---

(١٠) العباهلة : الذين أقروا على ملكهم لا يزالون عنه (غريب الحديث لأبى عبيد ج ١ ص ٢١٢ وكذا الفائق للزمخشرى ج ١ ص ١٥ ،

(١١) الأرواع : الذين يروعون بجهارة المناظر وحسن الشارات . جمع رائع كشاهد وأشهاد (الفائق للزمخشرى ص ١٧ ج ١) .

(١٢) المشابيب : الزهر الذين كأنما شبت ألوانهم أى أوقدت . جمع مشبوب (الفائق ج ١ ص ١٧) .

(١٣) التيعة : الأربعون من الغنم (غريب الحديث لأبى عبيد ج ١ ص ٢١٣) وفى الفائق ١/١٥ مثله ، وزاد أيضا : وقيل هى اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة كالخمس من الابل ، وكأنها الجملة التى للسعاة عليها سبيل .

(١٤) الاقورار : تشان الجلد واسترخاؤه للهزال ، ويفضل حينئذ عن الجسم ويتسمع ، من قولهم دار قوراء (الفائق ١/١٧) .

(١٥) الليط : القشر اللاصق بالشجر والقصب ، من لاط حبه بقلبى يليط ويلوط اذا لصق فاستعير للجلد .. وانما جاء به مجموعا ، لأنه أراد ليط كل عضو (الفائق) .

(١١٦ الضناك : المكتنزة اللحم ، من الضنك ، لأن الاكتناز تضام وتضايق ، ومطابقة الضناك المقورة فى الاشتقاق لطيفة (الفائق ١/١٧)

(١٧) الانطاء : الاعطاء ، يمانية (الفائق ١/١٧) .

(١٨) الثبجة : ألحق تاء التأنيث بالثبج وهو الوسط ، لانتقاله من الاسمية الى الوصفية ، والمراد أعطوا المتوسطة بين الخيار والرذال (الفائق ١/١٨) .

(١٩) السيوب : الركاز ، قال ولا أراه أخذا من السيب وهى =

مم(٢٠) بكر فاصقعوه(٢١) مائة ، واستوفضوه(٢٢) عاما ومن زنى مم ثيب فضرجوه(٢٣) بالأضاميم(٢٤) ، ولا توصيم(٢٥) فى دين الله ، ولا غمة(٢٦) فى فرائض الله وكل مسكر حرام،وائل بن حجر يترفل(٢٧)

=

العطية ، يقول : هو من سيب الله وعطائه (غريب الحديث لأبى عبيدة ج ١ ص ٢١٤) وفى الفائق ١/١٦ : السيوب : الركاز وهو المال المدفون فى الجاهلية أو المعدن ، جمع سيب وهو العطاء لأنه من فضل الله وعطائه لمن أصابه .

(٢٠) مم : قلب نون « من » فى مثل قولهم : ثيب لغة يمانية كما يبدلون الميم من لام التعريف وأما مم بكر فلا يختص به أهل اليمن لأن النون الساكنة عند الجميع تقلب مع الباء ميما ، كقولهم شنباء وعنبر، والبكر والثيب يطلقان على الرجل والمرأة (الفائق ١/١٨) .

(٢١) الصقع : الضرب على الرأس (الفائق ١/١٨) .

(٢٢) الاستيفاض : التغريب ، من وفض وأوفض اذا عدا وأسرع (الفائق ١/١٨) .

(٢٣) التضريج : التدمية ، من الضرج ، وهو الشق .(الفائق١/١٨)

(٢٤) الأضاميم : جماهير الحجارة ، الواحدة اضسامة ، افعالة من الضم ، أراد الرجم (الفائق ١/١٨) .

(٢٥) التوصيم : أصله من وصم القناة وهو صدعها ، ثم قيل لمن به وجع وتكسر فى عظامه موصم ، كما قيل لمن فى حسيه غميزة موصوم، ثم شبه الكسلان المتثاقل بالوجع المتكسر ، فقيل به توصيم ، والمعنى : لا هوادة ولا محاباة فى دين الله (الفائق ١/١٨) .

(٢٦) الغمة : من غممة اذا ستره ، أى لا تخفى فرائضه ، وانما تظهر ويجاهر بها (الفائق ١/١٨) .

(٢٧) يترفل : يتسود ويترأس ، يقال : رفلته فترفل ، ..استعاره من ترفيل الثوب ، وهو اسباغه واسباله (الفائق ١/١٤) .

على الأقيال أمير أمره رسول الله فاسمعوا وأطيعوا »(٢٨) أ٠هـ ٠

---

(٢٨) هذه الرواية احدى روايات هذا الكتاب التى ذكرها الزمخشرى فى الفائق جـ ١ ص ١٤ وللكتاب رواية أخرى أوجز من تلك ذكرت فى : المعجم الصغير للطبرانى جـ ٢ ص ١٤٤ ، ١٤٥ وكذا : فى غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام جـ ١ ص ٢١١ ، وفى الفائق أيضا ولفظها فيهما : « من محمد رسول الله الى وائل بن حجر والأقوال العباهلة من حضرموت باقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، على التيعة شاة ، واليتمة لصاحبها ، وفى السيوب الخمس ، لاخلاط ، ولا وراط ، ولا شناق ، ولا شغار ٠

ومن أجبى فقد أربى ، وكل مسكر حرام » أ ٠ هـ ٠

التيعة : سبق تفسيره ، التيمة : يقال انها الشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى ، ويقال انها الشاة تكون لصاحبها فى منزله يحتلبها ، وليست بسائمة ، وهى الغنم الربائب التى يروى فيها عن ابراهيم «ليس فى الربائب صدقة» (غريب الحديث لأبى عبيد جـ١ ص٢١٣)

والخلاط : أن يخالط صاحب الثمانين صاحب الأربعين فى الغنم ، وفيهما شاتان لتؤخذ واحدة (الفائق جـ ١ ص ١٦) ٠

والوراط : الخديعة والغش ، ويقال : انقوله : «لا خلاط ولا وراط» كقوله : لا يجمع بين متفرق ، ولا يفرق بين مجتمع (غريب الحديث لأبى عبيدة جـ١ ص ٢١٥) ٠

والشناق : أخذ شىء من الشنق ، أخذ شىء من الشنق ، وهو ما بين الفريضتين ، سمى شنقا لأنه ليس بفريضة تامة : فكأنه مشنوق أى مكفوف عن التمام (الفائق ١/١٦) ٠

وقال أبو عبيد بعد أن ذكر معناه : يقول لا يؤخذ من ذلك شىء » (غريب الحديث جـ ١ ص ٢١٦) ٠

تكليفات الايمان يخاطب بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوما آمنوا بالله ورسوله ، فلا مجال هنا لدعوة الى التوحيد ، الذى استقر فى النفوس ، بل تنصب الدعوة على تبعات الايمان من اقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، مع التحديد الدقيق لنصابها ، ولما يخرج من هذا النصاب ، دون أن يترك ذلك لاجتهاد مجتهد ، ثم بيان لحد الزنا للمحصن وغير المحصن ، مع تحريم كل مسكر ، كل ذلك فى تعبير هو أقرب ما يكون وضوحا للمخاطبين به ، اذ هو لغتهم ، وتلك آية من آيات البلاغة النبوية ، التى تؤكد مع غيرها من آيات أن محمدا رسول الله ، وأنه « العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية فى أطراف الجزيرة ، لم يكن فى كلامه غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه الى مراجعة ، وسر ذلك أنه يريد أن يبلغ ، أو يريد أن يصل الى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب ، و المعنى الغريب »(٢٩) .

هذا العلم الواسع بلهجات العرب فى أنحاء الجزيرة كان مدعاة عجب لبعض أصحابه « حتى قال له على ـ رضى الله عنه ـ وسمعه

الشغار : أن يشاغر الرجل الرجل ، وهو أن يزوجه أخته على أن يزوجه هو أخته ، ولا مهر الا هذا ، من قولهم : شغرت بنى فلان من البلد اذا أخرجتهم (الفائق ١/١٧) .

أجبى : باع الزرع قبل بدو صلاحه ، والارباء : الدخول فى الربا ، والمعنى أنه اذا باعه على أن فيه كذا قفيزا ، وذلك غير معلوم فاذا نقص عما وقع التعاقد عليه أو زاد فقد حصل الربا فى أحد الجانبين (الفائق ١/١٧) .

(٢٩) عبقرية محمد للعقاد ص ٨٢ .

يخاطب وفد بنى نهد(٣٠) : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »(٣١) .

لقد أسلمت العربية قيادها لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأحاط بكل ما فيها من لهجات ، ووقف على كل ما لها من اسرار ، وصار بيانها « كأن الله عزت قدرته محضه والقى زبدته على لسانه .. عليه افضل صلاة وأوفر سلام ، فما من خطيب يقاومه الا نكص متفكك الرجل(٣٢)، وما من مصقع(٣٣) يناهزه الا رجع فارغ السجل ، وما قرن بمنطقه منطق الا كان كالمبرذون(٣٤) مع الحصان المطهم(٣٥) ولا وقع من كلامه شيء فى كلام الناس الا أشبه(٣٦) الواضح فى نقبه(٣٧) الأدهم»(٣٨).

وصلى الله تعالى وسلم على من أوتى جوامع الكلم .

---

(٣٠) ما قدمت وفود العرب على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قام طهفة بن أبى زهير النهدى ــ وهو خطيب مفوه ــ فتكلم بكلام غريب من لغة قومه ، اجابه عنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ودعا لهم ، ثم كتب معه كتابا الى بنى نهد (اعجاز القرآن للرافعى ص ٣٣٦) وذلك كله ذكره ابن الأثير فى المثل السائر (جـ ١ ص ٢٣١ ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ طبعة مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٩ ــ تحقيق وتعليق : د. أحمد الحوفى ، ود. بدوى طبانة) فليلتمس هناك . .

(٣١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

(٣٢) متفكك الرجل كناية عن العى والعجز عن المقاومة (هامش الفائق جـ ١ ص ١١) .

(٣٣) مصقع كمنبر : البليغ .. أو من لا يرتج عليه فى كلامه ولا يتعتع (القاموس المحيط) .

(٣٤) البرذون : الدابة (القاموس واللسان) .

(٣٥) المطهم : الحسن التام كل شيء منه على حدته ، فهو بارع الجمال (لسان العرب) .

(٣٦) الوضح : الغرة (القاموس المحيط) . والوضح (بفتح الضاد)

(٣٧) نقبة الأدهم : النقبة : الوجه ، والأدهم : الأسود .

(٣٨) الفائق للزمخشرى جـ ١ ص ١١ .